

من شئونه الاجتماعية

لم يكن الرافى عضواً فى جماعة من الجماعات ، ولا منتسباً إلى حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف ؛ إذ كان يؤثر الوحدة والاستقلال فى رأى . وكان من التعصب لرأيه والاعتداد بنفسه بحيث يأبى أن ينزل عن رأى يراه مجاملة لصديق أو خضوعاً لرأى جماعة ينتسب إليها ؛ وكان له من علته سبب آخر نبتت إليه عند الحديث عن نشأته . ثم إن الرافى لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم ما تفرض عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوب الناس فيما يليق وما لا يليق ؛ فهو لا يعتبر إلا رأيه ، أو حاجته ، أو مصلحته ، فيما يكون بينه وبين الناس من صلوات ، ولم يكن يعرف هذا (النفاق الاجتماعى) الذى يسميه الناس : التقاليد ، أو الأدب اللائق ... ! فهو بذلك كان عالماً منفرداً يسير فى نهجه إلى الهدف المؤمل على وحي الفطرة أو هدى الإيمان . سمّ هذا شذوذاً فى الخلق ، أو سمّه استقلالاً فى الرأى وأسلوباً من التعبير عن الشخصية المتميزة بخصائصها ؛ فما يعنى هنا إلا إثبات هذه الحقيقة فى التاريخ كما شهدتها فى معاملاته وفى صلواته بالناس ، وكما لمحتها فى جملة من أحاديثه ... هذه الأسباب هى أهم ما كان يباعد بين الرافى والاشتراك فى الجماعات ، أو يباعد بينها وبينه !

على أن ذلك لم يكن يمنعه أن يكون هواه مع جماعة من الجماعات أو حزب من الأحزاب فى وقت ما لسبب ما ، ولم يمنعه ذلك أن يكون عضواً فى بعض الجماعات وأول أمره فى ذلك — على ما أعرف — أنه شرع وهو شاب لم يجاوز العشرين فى تأليف جماعة من الشباب تدعو إلى نوع من الإصلاح الدينى ؛ وكان معه على هذا الرأى صديقان من أترابه ، أذكر منهما الأستاذ عبد الفتاح الرقى المحامى بطنطا ؛ وقد اتخذوا (مسجد البهى) فى طنطا مكاناً لاجتماعهم وتبليغ

دعوتهم ، وطنظا ، كما قد يعرف كثير من القراء ، مركز هام من مراكز الثقافة في مصر ، وفي أهلها حفاظ وتخرج ، ولها صبغة دينية نشأت من أن فيها معهداً دينياً كبيراً في (الجامع الأحمدى) كان في وقت ما يشتد عدواً في مسابقة الجامع الأزهر بالقاهرة . والأزهريون في طنطا ، كالأزهريين في القاهرة ، إلى عهد قريب ، أكثر أهل العلم في مصر حفاظاً على القديم ، وأسرعهم إلى سوء الظن بكل إصلاح جديد ؛ من ذلك إلى الرافعى وصاحبه في دعوتهم ما لقوا من عداوة طلبة الجامع الأحمدى وعلمائه ، حتى هم الطلبة مرة أن ينالوهم بالأذى في أبدانهم ... فلم يجد الرافعى وصاحبه في النهاية بداً من التسليم ، وألحلت الجمعية الرافعية الصغيرة .. حدثنى الرافعى حديث هذه الجمعية في خريف سنة ١٩٣٢ بعد ثلث قرن مما كان ؛ وكنت ذهبت إليه يومئذ في وفدٍ ثلاثة ندعوه إلى الاشتراك معنا في جماعة أنشأناها بطنطا في ذلك الوقت باسم « جماعة الثقافة الإسلامية » تدعو فيما تدعو إلى العمل على إحياء الشعور بمعنى القومية الإسلامية العربية ، واتخذت لذلك وسائل وشرعت نهجاً ؛ وكانت تضم فيمن تضم طائفة ممتازة من أهل رأى والعلم والأدب ، لكل منهم صوت ورأى وجاء في قومه ...

ولبى الرافعى دعوتنا بعد تمثُّع ، وانتظمت الجماعة على رأى واحد إلى هدف واحد ، فلما استكملنا الأهبة ، دعونا الشباب المثقفين في طنطا إلى اجتماع عام في ناد كبير ، وكان الرافعى من خطباء الاجتماع .

صعد الرافعى إلى المنصة ، فوقف برهة يجيل نظره في ذلك الجمع الحاشد ، ثم انطلق في خطبته .

وعلى أن الدعوة إلى الاجتماع كانت عامة ، وعلى أن موضوعه هو الثقافة الإسلامية ؛ فإنه لم يشهد هذا الاجتماع من شيوخ (الجامع الأحمدى) ومدرسيه غير ثلاثة من الشيوخ ، وطائفة غير قليلة من المدرسين غير الشيوخ ؛ ولم يفت الرافعى أن يلاحظ ذلك ؛ قال في خطبته إلى هذه الناحية ، بنى على شيوخ الأزهر أن يتجاهلوا واجبه في مثل هذه الدعوة ، وأن يؤثروا القعود على الجهاد لله !

وكان فيما قاله : « ... إن أديباً كبيراً من وزراء الدولة قد قالها مرة منذ ثلاثين سنة : لو قعد حمارى فى الأزهر خمس عشرة سنة لخرج عالماً وما نحب أن يقولها اليوم أحد ليلحد فى كفاية طائفة من أهل العلم والدين هم أكرم علينا ... ! »

قالها الرافى فى حماسة وانفعال وفى لهجة خطابية نائرة ، فسمع المجتمعون همهمة عن يمينه وشماله ، أما عن يمينه فكان الشيوخ الثلاثة قد آذاهم ما قال الرافى ، وأما عن الشمال فكان طائفة من المدرسين غير الشيوخ فى الأزهر قد خافوا أن تؤول كلمة الرافى تأويلاً ينالهم بالشر من إخوانهم الأزهرين ...

وعلى أن الرافى كان برىء الصدر فيما قال ، وعلى أن الأزهرين كانوا يعلمون قبل غيرهم أن هواه معهم ، وعلى أن صدر كلامه وخاتمة لم يكن ينبئ عن قصد الإساءة ؛ فإن هذه الكلمة التى قالها قد أحدثت دويلاً بين الأزهرين تهدد الجماعة فى نشأتها

وسمى ساع إلى شيخ الجامع الأحمدي (المرحوم الأستاذ محمود الدينارى) فأنبأه أن الرافى قد قال فى خطبته : « لو قعد حمارى فى الأزهر بضع سنين لخرج أعلم من شيخ الأزهر ... ! »

وكتبها كاتب فى رسالة خاصة إلى الأستاذ الجليل الشيخ محمد الأحمدي الظواهري شيخ الجامع الأزهر ... !

وتسامع بها الشيوخ على ما حكاه الراوى فراحوا يتناولون الرافى وجماعته بما وسعهم من التجريح فى أعراضهم ودينهم ومقاصدهم ، وقال قائل منهم : « وما حاجتنا إلى هذه الجماعة فيما تدعو إليه ؟ لقد انتشر الإسلام ومد ظلاله فى العالم على حد السيف ؛ فما يغنى غناءه فى هذه الدعوة كاتب يكتب أو خطيب يخطب ! » وامتدت هذه القالة الطائشة على لسان طائفة ...

وعرف الطلاب من الأمر ما عرفوا فأعلنت طائفة منهم الحرب ، وسعت طائفة أخرى فى وفد إلى مدير المديرية تطلب إليه أن يقمع هذه الفتنة بسلطانه ، واصطبغت المشكلة صبغة سياسية ؛ إذ كان للأزهرين يومئذ فى السياسة دولة وسلطان ...)

وإذ اتصل الأمر بالسياسة ، فإن طائفة من الموظفين المنتسبين إلى الجماعة قد فزعوا فأثروا البراءة منها على الدفاع عنها ، وأشفقت طائفة على مصير الجماعة فأوفدت وفداً إلى الأستاذ الدينارى شيخ الجامع يحقق له الرواية ويمحو سوء الظن ويعتذر ... ولكن شيخ الجامع رد الوفد ردّاً غير جميل وقال عن الرافى ما قال ... وجاء الخبر إلى الرافى بما أحدثت كلمته ، فما أفرعه من ذلك إلا أن يصدق شيخ الأزهر ما نقل إليه منسوباً إلى الرافى وإنهما لصديقان من زمان ... فكتب إليه :

« ... وإن شيخاً من علماء الجامع الأحمدي يزعم أن الإسلام قد انتشر على حد السيف ، وهذا كلام ، وسيتقى كلاماً ما دمت ساكتاً عنه ، فإذا عرضت له بالمناقشة فقد تغيّر وجهه ، لو كان وجه النهار لاسودّ ! »

وعلم شيخ الأزهر حقيقة الدعوى التي ادعاها خصوم الرافى عليه بما زادوا فيها ونقصوا ، فكتب يعتذر إليه ، وكتب إلى شيخ الجامع الأحمدي ...

وكان الرافى جالساً إلى مكتبه في المحكمة حين جاءه الرسول يدعوه إلى مقابلة شيخ الجامع الأحمدي فردّه ، وعاد يدعوه ثانية ويلج في الرجاء فحدد الرافى موعداً وذهب إلى لقاء الشيخ فاستقبله العلماء بالباب في حفاوة بليغة ، وسعوا بين يديه مهرولين إلى مكتب الشيخ ؛ قال الرافى : « ووجدت الشيخ في انتظاري وبين يديه (إعجاز القرآن) ؛ فما لقيني حتى قال : أتعرف يا سيدى أنني مدين لك ؟ هذا كتابك لا أجد لي رقيقاً خيراً منه ، إنه زادى وعمادى . ثم عيَّث في درج مكتبه قليلاً فأخرج ورقة فيها شعر مكتوب ، فدفعها إليّ وهو يقول : وهذه قصيدة أعدتها لأنشدها بين يدي المليك في طريق عودته إلى القاهرة من مصيفه ؛ لا أجد من يصلحها خيراً منك ، فأنت أنت للشعر والبيان ! »

قال الرافى : « وبدون هذا كانت تقنع نفسي وترضى ، ولكنها كانت وسيلة الشيخ إلى استرضائي بعد الذي قال عني منذ أيام ؛ طاعة لأمر شيخ الأزهر ... ! » ثم الصلح بين الرافى والأزهر ، ولكن الأزمة التي كانت ، لم تُسَقِ على

الجماعة، فأنحلت بعد ما طار منها أكثر أعضائها من الموظفين خشية التهمة بالسياسة..
وكان للسياسة يومئذ حديث طويل ...

ولم يشترك الرافعى على ما أعلم فى غير هاتين الجماعتين

ولم تهباً للرافعى رحلة من الرحلات يفيد منها علماً أو تجربة طول حياته ، غير
رحلة أو رحلتين — لا أذكر — إلى الشام . لم يفارق مصر إلى غير الشام من
بلاد الله ؛ فزار طرابلس حيث ما تزال أسرة الرافعى لها ذكر وجاء ، وزار لبنان
حيث عرف صاحبة حديث القمر فى سنة ١٩١٢ .

على أن الرافعى كان يحب الرحلة ويطرب لها ويتمنى لو أتيحت له . ولكن
موارده المحدودة كانت تقعد به ؛ ولما كان فى بطانة المغفور له الملك فؤاد ، كان له
جواز سفر مجانى فى الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد المصرية ؛ فكان يعد
حصوله على هذا الجواز ظفراً بأمنية عزيزة ، لأنه أتاح له أن يتنقل ما شاء بين البلاد
من غير غرم ، حتى ما يكاد يستقر فى بلد ، فيوماً فى القاهرة ، ويوماً فى الإسكندرية ،
ويوماً فى بورسعيد ؛ يفيد من هذه الرحلات ما يفيد لأدبه أو لبدنه وأعصابه . حدثنى
مرة أنه كان ينظم قصيدة من مدائحه الملكية ، فأحس شيئاً من التعب والملال ،
فقصده إلى المحطة فأتخذ مقعده فى قطار كان على أهبة السفر إلى بورسعيد ، فآتم
قصيدته هناك ثم عاد ...

وقد كان هذا الجواز هو سبب ما بينه وبين الإبراشى باشا مما فصلت مجله
فى فصل سابق ، وكان الرافعى قد قصد إليه يطلب مدّاً أجل هذا الجواز بعد انتهائه !
وكان يغبط الذين يجدون فى طاقهم أن يقضوا الصيف من كل عام فى أوروبا
ويعتبر لو أتيح له ، ليفيد من ذلك شيئاً مجدى على أدبه . على أنه مع ذلك كان
يرحل إلى أوروبا أيا ن يريد ، ولكن فى السىما ...

كان يسمى السىما : خارج القطر ! ويزعم أن فى ذهابه لمشاهدتها كلما صنعت
له الفرصة غناء عن السفر ، فسواء عنده أن يرحل إلى أوروبا فى قطار أو باخرة ،

وأن ترحل إليه أوربا بحالها في رواية يشاهدها على ستار السبا ؛ فلكلّهما أثر متشابه في نفسه ؛ وذلك بعض مذهبه في فلسفة الرضا والسعادة !
وكم كان ظريفاً أن تسمعه يتحدث إلى صديق من أصدقائه قائلاً : « هل لك أن تصحبني الليلة إلى خارج القطر ؟ » يلقي هذا السؤال بلا تكلف ولا قصد إلى الفكاهة ، لأن كلمة (خارج القطر) كانت عنده عالماً عرفياً على السبا لا يحتاج إلى تعليق !

وكان عجيباً في إيمانه بالغيب ، وتناجى الأرواح ، وتنادى الموتى والأحياء ؛ وكان يؤمن بالسحر والعرافة ؛ وكثيراً ما كنت تسمع منه : « حدثني نفسي ... أُلقي إلى ... هتف بي هاتف » وكان يعني ما يقول على حقيقته ؛ جلست إليه مرة في منزله ، فأخذنا في حديث طويل . . . وعلى حين غفلة سكت ، ثم قال : « كيف صديقنا مخلوف ؟ قلت : « لم أره من زمان ! » قال : « إنه قادم الساعة .. لقد أُلقيَ إلى .. أحسبه الآن يصعد في السلم .. ! » فما كاد يتم حتى دق الجرس . وكان الأستاذ حسنين مخلوف هو القادم ، وسألت الأستاذ مخلوفاً : أكان على موعد مع الرافعي ؟ فنفى لي كل ظنة !

وسألني مرة أخرى : « ماذا تعرف عن صديقنا م » قلت : « لا جديد من أخباره ! » قال : « يهتف بي الساعة هاتف أنه في شر ! » وفي صباح اليوم التالي كان نبأ شروعه في الانتحار منشوراً في الصحف ! وفي الرسائل التي تبادلها بعد هذه الحادثة ما يبعد الظن بأن الرافعي كان يعلم شيئاً !

وكان بينه وبين رجل قضية ، ففاظه ، وجاءني الرافعي يوماً محنقاً وهو يقول : « سينتقم الله منه ! سينتقم الله منه ! قلبي يتحدثني بأن القصاص قريب ! » وفي الغد جاءنا نفي الرجل ، وكنت مع الرافعي وقتئذ ، فتندت عيناه بالدمع ، وتناول سبحته وأخذ يتمم في صوت خافت وشفته تحتلج من شدة الانفعال !
هذه حوادث ثلاث رأيتها بعيني ، ولعلها من عجائب الأخبار عند بعض

القراء ، وأحسبني قد رأيت له غير ذلك ولكنى لا أتذكره الآن ...

وحدثني أن أباه كان مسافراً مرة إلى بلد ما ، وكان عليه صلاة ، فافترش مصلى وأخذ يصلى على رصيف المحطة ، وإنه لكذلك إذ جاء القطار ، قال الرافعي : « وكان أبى حريصاً على ميعاد هذه السفرة ، يخشى شيئاً لو تأخر عن موعدها ، وما كان بين موعد قدوم القطار وسفره ما يتسع لصلاة الشيخ ؛ ولكن الشيخ استمر في صلاته على واني واطمئنان ؛ وما تحرك القطار إلا بعد أن فرغ الشيخ من صلاته واطمان في كرسيه وحيّاً مودّعيه ووصى ؛ وكان سبب تأخير القطار شيئاً غير مألوف يتصل بشأن من شئون المحطة ! »

وأحسبه ذكر مرة في بعض ما كتب ، كيف ثقل نعش أمه على كتفه ثم خف ! وأخبرني أنه لما مات أخوه المرحوم محمد كامل الرافعي استحضر روحه فلبت نداءه ، وكان بينهما حديث لا أذكره . وحاول مرة أن يعلمنى وسيلة لتحضير الأرواح ولكنى لم أتعلم !

وكان يحفظ كثيراً من الأدعية والدعوات لأسبابها !

ولما وقع في حب (فلانة) ونال منه الوجد بها ، لجأ إلى العرافين في أمل يأمله ، فكتب تيممة فعلقها في خيط فربطها في سارية بأعلى الدار تتلاعب بها الريح ... قال : « ولكن أموراً عجيبة مفرعة وقعت لى ولأهلى ولسكان الدار جميعاً في خلال اليومين اللذين كانت التيممة معلقة فيهما ؛ فأيقنت أن ذلك من ذلك ؛ فإن لكل تيممة غايتين : إحداها ما تأمل وثانيتهما مما تخاف ، وكان ما وقع لى وما يهددنى من شر ، أكبر عندى من الأمل الذى أرجو ؛ فندمت على ما كان ، وتسليت إلى السطح فخللت رباط التيممة وفضضت خاتمها ... قال : فما فعلت ذلك حتى عادت الأمور تسير على عادتها في رفق وأناة ، وزال ما كنت أحذر وهدأت نفسى من ناحيته ؛ فما كان شأنى في الحاليتين إلا كراكب سفينة هبت عليها عاصفة ثم قرّت ! ... قال : وما كان الذى وقع لى في هذين اليومين مما يقع في العادة ، ولا كانت نهايته ، وقد فضضت خاتم التيممة ، بالنهاية التى تنتظر ... ! »

وكان يؤمن إيماناً لا شك فيه بأن يوماً ما سيأتى فيرتد إليه سمعه بلا علاج ولا معاناة، لأن بشيراً من الغيب هتف بهذه البشرية فى نفسه ؛ فهي لا بد واقعة ! وقد مات وعلى مكتبه رسالة من صديقه الأستاذ فليكس فارس يشير عليه بتجربة لترد عليه سمعه الذى فقدته منذ ثلاثين سنة أو يزيد ، ورسالة أخرى من صديقه الأستاذ حافظ فيها شئ يشبه ذلك !

وأحسبه قال لى مرة أو مرات وكنت جالساً أحدث إليه : « ارفع صوتك بالحديث لعل الساعة الموعودة قد حانت فأسمع ما تقول ! »
ولو أننى ذهبت أستقصى ما أعرف من مثل هذه الأخبار ما وسعنى الوقت ، وفى بعض ما قدمت الكفاية لمن يلتمس أسباب العلم

وكان الرافعى ولوعاً بالرياضة البدنية من لدن نشأته ، يعالج أسبابها فى أوقات رتيبة ، وكان المشى الطويل أحب رياضة إليه
خرجت مرة فى جماعة من صحبى يوم شم النسيم للرياضة بُعيد الفجر ، وكان معنا ماؤنا وطعامنا وقد عزمنا أن نقضى اليوم كله فى الخلاء ، فلما صرنا على بعد ميل من المدينة والشمس لما تشرق ، لمحت الرافعى على بعد يخب فى مشيته على حافة قناة بين زرعين ؛ فلما دنوت منه رأيته يميل فيتلل كفه بأنداء الفجر على أوراق البرسيم فيمسح بها وجهه وهو مغتبط مبسوط ؛ وأقبلت عليه أسأله ، قال : « هذه رياضة تحلو لى كثيراً ، فما أتركها إلا لعارض ، بل إنى ليطيب لى أحياناً أن أخرج من البيت قبل الفطور لأجول هذه الجولة ، ثم أعود لأفطر وأخرج إلى الديوان ... » قلت : وهذا الندى الذى تغسل به وجهك ؟ قال : « إنه ينضّر الوجه ويردّ الشباب ! » ثم سأل : « وأنتم أين تقصدون ؟ » قلت : هذه رياضة لا تقوم بها فى العام إلا مرة ، وإن معنا طعاماً وماءً وحلوى ؛ فهل تصحبنا ؟

قال : « وددت ولكن فى غير هذا اليوم ... أسأل الله لكم العافية ! »
ونالنا فى هذا اليوم شر لم نتوقعه ، فعدنا قبل أن ينتصف النهار محزونين ! ...

وسمع الرافى بما نالنا فقال : « هو ذلك ! إن الشر ليربص بالمسلم الذى يحتفل لهذا اليوم أكثر مما يحتفل لمطلع المحرم ! هذه وصية أب ! »
وكان يعالج كثيراً من وسائل الرياضة غير المشى ، وقد أتقن تمرينات « صاندو » الرياضى الفرنسى المشهور ...

ولو أن أحداً دخل منذ سنوات الغرفة التى كان فيها مكتب الرافى ، لراى (عُقْلَةً) تتدلى من السقف ، وكُرَاتٍ وأساطين من الحديد ملقاةً إلى جانب ، وأثقالاً من أثقال الرياضة مسندة إلى الحائط

وقد كان إلى قريب يملك عوداً طويلاً من الحديد الغليظ يعلق فى طرفيه ولديه الشابين سامى ومحمد ، ثم يرفعهما بيده كما يفعل أبطال الحمل حين يحملون من أثقال الحديد ... !

وكان وكّعه بالرياضة يحمله على السعى إلى أبطالها يلتمس صداقتهم ؛ ومن أصدقائه المصارع الكبير المرحوم عبد الحليم البصرى ، والبطل المصرى المشهور السيد نصير !

ومن عجائب الازدواج فى شخصية الرافى أنك كنت تنظر على مكتبه ثلاث صور لا تجتمع فى مكان ؛ هى صورة المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وصورة الرياضى الفرنسى المشهور صاندو ، وصورة ... كريمان هانم خالص ، ملكة الجمال التركية ؛ واسترعى اجتماع هؤلاء الثلاثة ملاحظتى ذات يوم ؛ فقال وأشار إلى صورتى صاندو والشيخ محمد عبده :

« هاتان قوتان تعملان فى نفسى : قوة فى روحى ، وقوة فى جسدى ! »

قلت : « وهذه ... ؟ »

قال : « وهذه ... ! ما أجملها ! انظر ! ألا تقرأ شعراً مسطوراً على هذا الجبين ؟ »
وكان سباحاً ماهراً ، وكانت له جولات فى السباحة يشهدها شاطئ سيدى بشر فى الصيف ، وكان يقصد هو وأسرته للاستحمام هناك جانباً من الشاطئ غير مطروق لعنفوانه وشدة موجه ، وكان يمزح ويسميه « بلّاج الرافى » إذ قل

أن يقصد إليه للاستحمام أحد من المصطافين في سيدى بشر غير الرافى وأسرته .
ولا يطمئن في قدرة الرافى على السباحة أنه أوشك أن يفرق مرة ؛ كان ذلك
قبل منعه بأشهر ، وكاد يفرق معه طائفة من أولاده ، لولا أن أسرع حارس
الشط لنجدتهم .

والرافى صورة طريفة تصورها منذ بضع عشرة سنة ، وتمثله في زى أبطال
الرياضة المشهورين : عارى الجسد بارز العضلات !

وله مقالات مشهورة عن الرياضة البدنية ، نشرها سلسلة في مجلة « المضمار »
الرياضية التى كانت تصدر فى القاهرة منذ بضع عشرة سنة .

وكانت عنايته بالرياضة من أسباب قوته البدنية ، ومن أسباب قوته العصبية
أيضاً ، ومن هاتين كان اضطباره الرافى على العمل الشاق فيما يعالج من شئون الأدب .
ولكنه وا أسفا ... قد مات بغير علة ، لأن القدر أقوى من احتيال البشر !

قلت فى أول هذا الفصل : إن الرافى لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم ما تفرض
عليه الجماعة من تقاليد ويتخذ أسلوب الناس فيما يليق وما لا يليق ...

فلعل قراء الصحف المصرية ما يزالون يذكرون ذلك الإعلان المشهور الذى كان
يطالعهم فى كل جريدة وكل مجلة عن « الفسفورين » وفى رأسه صورة الرافى
وشهادة بخطه عن مزايا الفسفورين الذى « شربه فكأنما شرب فيه الكهربا ... »
ولعل كثيراً من الذين قرءوا هذا الإعلان ورأوا فى رأسه صورة الرافى
وشهادته بخطه — قد عجبوا وسألوا أنفسهم : كيف يرضى رجل كالرافى أن يضع
نفسه هذا الموضع ؟

ولعل كثيراً منهم كذلك كانوا يعتقدون أن الرافى لم يكتب هذا الإعلان
إلا مأجوراً كما يؤثر « نجوم » السيامى وملكات الجمال على الإعلان عن صنوف
العطر والصابون وأدوات الزينة ... !

... ولكن هذا الذى كان يدور فى خلد جميع القراء ، أو أكثر القراء ،

لم يكن يخطر للرافعى أو يدور بخلده ؛ بل لعله كان يراها مفخرة له على أدباء الجيل أن يؤخذ بشهادته من دونهم جميعاً ، وأن تُنشر صورته كلَّ يوم في كل جريدة مع لقب « إمام الأدب وحجة العرب ... » الذى نَحله إياه الأمير شكيب أرسلان فى بعض ما كتب عنه ! وأحسبه قال لى مرة : « إن الأديب فلان لياً كله الفيظ كلما رأى هذه الصورة مقترنة إلى هذا اللقب الذى لا يتناول إليه أديب من أدباء الجيل ! »

أُتراه كان يعتبرها شهادةً منه بفائدة الفسفورين ، أم شهادة من الفسفورين بإمامته ... ؟

ولكنه — يرحمه الله — لم يكن يعرف من تقاليد الناس ما يؤهله ليرى أن نشر صورته مع مثل هذا الإعلان هو عمل لا يليق ! والسبب الذى دعاه لكتابة هذا الإعلان ، أنه ذهب مرة ليشتري دواء من صيدلية ؛ فأهدى إليه مَنْ أهدى شيئاً من الفسفورين زعم أنه يعينه على المجهود العصبي الذى يبذله فى معاناة الأدب ؛ ثم دعاه بعدُ إلى كتابة هذا الكتاب ؛ فلما أجابه الرافعى إلى ما طلب ، بعث إليه فى منزله بهدية من مرگبات الفسفور فى صندوق ... ثم كان كتاب الرافعى — كما رآه القراء — إعلاناً بأبخس الأثمان ، وهو راضٍ مسروراً !

وثمة إعلان آخر غير هذا الإعلان ، نشره منذ سنين فى مجلة المقتطف^(١) ، يُشيد بفنٍّ مهندسٍ مشهور ؛ لأنه وضع له رسماً لمنزله الذى مات قبل أن يبنيه ؛ وكان هذا الإعلان هو كل أجر المهندس على الرسم الذى وضعه ؛ وإلى القراء هذا الإعلان ؛ أثبتته هنا طُرفة أدبية لا يقع القراء على كثير من أمثالها ... !

إلى المهندس النابغة الأستاذ رمسيس ...

عزيزى الأستاذ رمسيس

تأملتُ رسمك الجميل الذى وضعته لمنزلى ، وتبعتُ مواضعَ الاتصال فيه بين قريحتك البديعة وبين شكل الطبيعة ورؤوحها ؛ فأشهدُ لكأن هذا الرسم بما فيه من القوه يُحاولُ أن يحيا فى نظر من يتأمله .

إنك بهذا الذوق السليم الحىّ لتعطينا السرورَ فى شكل من الفن ، حتى لو مَلَكَ المالكُ رُقعة من الأرض كالبقعة من الظلمة لوضعتَ لها من هندستك عُزَّةً فخر يضى عليها .

وأراك بهذه الدقة وهذا العلم كأنما تُرغمُ الطبيعة أن تقدم لك حساباً عن كل مكان تتناوله منها ؛ وأحسبها لو هى صنعت بناءً كما تصنعُ ثمارها وأزهارها لجاءت به فى موضعه على الرسم الذى تتخيَّله أنت لموضعه ، كأنك أعطيتَ بالعلم سرَّ إظهار الجمال فى أشكاله كما أعطيتَ هى بالقُدرة سرَّ تكوين الأشكال فى جمالها .

ما أبدعَ ما تمزجُ أيُّها الساحرُ بين القريحة والمادة ، وما أدقَّ ما تصلُ بين الجمال والمنفعة ، وما أكملَ ما تحققُ بين الخيِّلة والواقع ! إن هذه الخطوط التى رسمتها لتكون ميلادَ بيت جميلٍ هى نفسها ميلادُ فنٍّ بليغٍ يقيمُ لك بناءً نفخاً من إعجاب محبك .

مصطفى صادق الرافعى

ديسمبر سنة ١٩٢٨

وقد طبع الأستاذ رمسيس من هذا الكتاب آلاف الصور ليكون إعلاناً عن فنه بشهادة الرافعى ؛ وحسبك بها من شهادة !

ولئن كان فى هذين الإعلانين الكفاية لإثبات ما قدمت من وصف أخلاقه الاجتماعية ، إن فى الحادثة التالية كشاهداً حقيقاً بالنظر :

عاد الأستاذ حافظ . . . من الحجاز في إجازته السنوية ، فأهدى إلى الرافعي
سُبْحَة نادرة لمناسبة عودته ، زعم له أنها تساوى بضعة جنيهات .

وعرض الرافعي السبحة على وقال : « كم تساوى ؟ » قلت : « لا أدري ! »
قال : « فهل لك أن تقوّمها في السوق ؟ » فذهبت بها — ولم أكن أعرف أنها
مهداة إليه — فلم أجد لها شبيهاً في السوق ، ولكن تاجراً أنبأني أنها لا تساوى
أكثر من جنيه !

وأنبأت الرافعي بما سمعت ، فما لبث أن تناول قلمه وكتب رسالة إلى صديقه
يعتب عليه أن يغالى بقيمة الهدية إلى خمسة أمثالها !!

وعلمتُ بعدُ بما كتب الرافعي فتأملت لذلك ولم أكنم عليه رأيي ؛ فنظر إلى
مدهوشاً وهو يقول : « أترأه خطأً أن أكتب إليه بهذا ... ؟ »

قلت : « نعم ! » فسكت هنيهة ثم قال : « وهل ترأه يفضب لهذا ؟ »
قلت : « أظن ! »

فعاد إلى سكوته وفي وجهه الأسف !

وجاءه بعد يومين جواب صديقه بالبريد ، فيه عذْل ، وفيه عتاب ، وفيه ورقة
بجنيه يطلب إليه أن يشتري به سبحة مثلها إن وُجِد ... !

وقرأ الرافعي رسالة صديقه ؛ وكان حرياً أن يشتدّ به الأسف لجواب صديقه ،
لولا أن هذا الجنيه قد محّا ما كان في نفسه ... !

